ANNALES ISLAMOLOGIQUES

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar.

AL-RABBĀṬ (Nāṣir)

[illegible] : [illegible] »

Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā’id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

كلما التقاه عبر الزمن أهمية لحظة اللقاء وطوبوغرافية مكان اللقاء. وعندما يشرح ابن شلبي للمقريزي ما حل بموقع خان الخليلي في زمانه هو أي في القرن العشرين، يتنهد المقريزي ويقول، «لم يبق إلا الاسم...آه يا مصر كم تحفظ ذاكرتك من أسماء[٤٢].»

هذه العبارة القصيرة تختصر مكانة المقريزي في الوعي المصري المعاصر كصاحب أوسع وأشمل وأعمق كتاب عن تاريخ مصر القروسطي. فهو الذي حفظ ذكرى العديد من الأمكنة التي اندثرت بحفظه لأسمائها، وهو أيضاً الذي حفظ وصف هذه الأمكنة والقصص التي نسجت حولها مما منحها بعداً تاريخياً بغض النظر عن اختفائها مما أبقاها حية في أفئدة المعاصرين. فالمقريزي إذن لعب ومازال يلعب دوراً مهماً في خطاب الهوية الوطنية المصرية، فهو الذي يقدم تاريخ المكان وتاريخ الناس، أي الأجداد، الذين عاشوا فيه، على الأقل حتى القرن الخامس عشر. أي أن كتاب المقريزي عن «خطط مصر» أصبح في عصرنا هذا المفعم بالوطنية موئل ومخزن التراث الوطني كما عرفه المفكر الأمريكي في شؤون التراث داڤيد لوفنتال (David Lowenthal) ببعديه القومي، كتاريخ سردي متكامل، والمكاني، كتاريخ مادي متكامل، في الوقت الذي اختفى فيه ممثلي البعدين الأصليين، أي الناس والأبنية[٤٣]. هذان البعدان يشكلان فيما بينهما الدعامتين الأساسيتين لأي شعور بالتراث الوطني، ذلك المكون الأساسي للهوية الوطنية مع غيره من العناصر الأساسية كاللغة والأرض والمصير المشترك. وبالتالي فالمقريزي قد أصبح اليوم علامة وهادياً ورائداً في الشعور والخيال المصري المعاصرين ليس فقط بفضل المعلومات التي حفظها في كتابه عن الخطط، بل وكما حاولت أن أبين في هذا البحث، بفضل تحليله التاريخي العميق ونفسه الوطني شديد الانتماء والعارم المبثوثين في تضاعيف الكتاب. وهذه مكانة لعمري يستحقها.

[٤٢] خيري شلبي، رحلات الطرشجي الحلوجي (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١)، ٢١.

[٤٣] راجع تحليل: David Lowenthal, *Possessed by the Past: The Heritage Crusade and the Spoils of History* (London: Viking, 1997), p. 127-172.

من خلال تواصله مع الكتابات التصوفية الإشراقية القروسطية، وبخاصة فلسفة ابن عربي وأتباعه، وتجاربه في إعادة صياغتها روائياً وتعبيرياً. فهو هنا، بعد تجارب متتابعة أودعها معظم كتبه التي نشرها في الثمانينات وبدايات التسعينات، يستلهم من العمارة الكثير ويحملها من المعاني مايتجاوز المباشر والصريح إلى «بث لرسائل خفية يصعب التصريح بمضامينها لصعوبة العوامل المدبرة للوقت[٤٠].»

ولم يقتصر ظهور المقريزي في الأدب المصري الحديث على الرواية التاريخية أو شبه التاريخية أو السيرة الذاتية كما في أعمال الغيطاني، بل تعداها ليظهر في نوع أدبي قليل الانتشار في الأدب العربي مقارنة بطغيانه في آداب ثقافات أخرى: الخيال العلمي، وبالتحديد روايات السفر عبر الزمن. فالمقريزي نفسه يظهر كشخصية متميزة في واحدة من أكثر الروايات المصرية المعاصرة سخرية ونقداً، وبالنهاية تشاؤماً من الوضع الصعب الذي تمر به البلاد، «رحلات الطرشجي الحلوجي» (١٩٩١) لخيري شلبي. في هذه الرواية الخيالية يتنقل الراوي، ابن شلبي أو الكاتب نفسه، في الزمان القاهري الماضي من دون أن يكون له أدنى سيطرة على سفره عبر الزمن من أجل هدف مضحك: حضور احتفال أول يوم من رمضان الذي يقيمه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بمناسبة انتهاء أعمال البناء في عاصمته الجديدة القاهرة. ولكن الهدف الأعمق من هذه الرحلات العشوائية على الأغلب هو تمكين الراوي/الكاتب من بناء شخصية مصرية متسامحة، مرحة، طيبة القلب وأزلية البعد، ربما كمحاولة من خيري شلبي لدفع الشعور الكئيب بالعجز عن فهم التطورات المعاصرة في مصر حيث يسود التعنت والتعصب والانغلاق[٤١].

ولايتمكن الراوي من الوصول إلى دعوته، وإنما نتابعه وهو يترامى من زمن قاهري لآخر قبل وبعد بناء القاهرة ومروراً بعهود الفاطميين والطولونيين والمماليك. وهو في تجواله عبر الزمن يمر بشخصيات فوق زمنية مثله، كابن الحكم وابن تغري بردي وستانلي لين پول صاحب كتاب تاريخ القاهرة، ولكن أهمها تقي الدين المقريزي الذي يلعب في الرواية دوراً أساسياً كدليل ابن شلبي في كل ما يتعلق بتاريخ القاهرة السياسي والمعماري. فهو شيخ جليل مهتم بمتابعة تاريخ القاهرة العمراني أينما حل ومهما حصل له. وهو يشرح لابن شلبي

[٤٠] راجع تحليلي لعلاقة الغيطاني بالقاهرة وبالعمارة في مقالي «دلائل العمران في أسفار البنيان: العمارة في كتابات جمال الغيطاني». الهلال، السنة ١٠٧، العدد ١ (يناير ١٩٩٩): ١٥٢-١٥٩.

[٤١] راجع تحليل:
Michael Cooperson, «Remembering the Future: Arabic Time-Travel Literature», *Edebiyat* 8 (1998): 171-89, esp. p. 179-184.

أشكال توضيحية أو مخططات على النص الوصفي التفصيلي مع أنه كان قطعاً مطلعاً على الكتب العمرانية الأوروبية الحديثة، وعلى «وصف مصر» بالذات. ولكن «خطط» مبارك على عكس «خطط» المقريزي لا تحمل في طيات تحليلها العمراني هموماً اجتماعية ولا تنبئ عن نفس نقدي قوي، بل ولا حتى توحي بأن هناك علاقة مباشرة بين العمران والسياسة على الرغم من أنها كتبت على الأغلب بهدف حصر منجزات الخديوي اسماعيل، راعي مبارك الأصلي، وابنه توفيق الذي أخذ الكتاب اسمه[٣٨].

ومازال المقريزي حتى يومنا هذا يشغل موقعاً متميزاً بالنسبة لمؤرخي القاهرة من مصريين وغيرهم الذين يعولون عليه في بحثهم في تاريخ القاهرة العمراني وتاريخ مصر بل وحتى بعض النقاط المهمة في التاريخ الثقافي الإسلامي[٣٩]. وهو بالإضافة لذلك يحتل موقعاً متميزاً في وجدان المؤرخين المصريين المعاصرين الذين يشعرون بتآخي عقلي وعاطفي معه من خلال وطنيته الواضحة في الخطط حتى أن بعضهم، كمحمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، نعته بالوطني الغيور بغض النظر عن أنه عاش ٤٠٠ سنة قبل ظهور فكرة الوطنية كما نعرفها.

ولم يبق التأثر بالمقريزي والإعجاب بخططه محصوراً في المجال التاريخي بل تجاوزه في السنين الأخيرة ليلج المجال القصصي والروائي على يد روائيين كبار مثل جمال الغيطاني الذي تقمص دور المقريزي في مجموعته الصغيرة «خطط الغيطاني» (١٩٨٠) التي يمكن رؤيتها كاستكمال معنوي لتأريخ عمران القاهرة الذي بدأه المقريزي في محاولة منه لحفظ ذكرى العصر الذهبي الذي ولى. ولكن «خطط الغيطاني» تؤرخ لقاهرة معاصرة بأسلوب فرداني، غير سردي أساساً، يتمحور حول علاقة الكاتب نفسه الحميمية والخاصة بالقاهرة الشعبية المعاصرة، وحول رؤيته السياسية النقدية لتغير ملامح المدينة وطبوغرافيتها بتغير رموز وأشكال السلطة فيها وتطور وسائل قمعها وسيطرتها على الرأي العام. وقد خطا الغيطاني خطوة جريئة جديدة في كتابه «سفر البنيان» (روايات الهلال، سبتمبر ١٩٩٧) حيث تماهى مع العمارة نفسها وأحياناً مع عناصرها المكونة، محولاً إياها إلى أدوات تعبيرية عن فلسفته الوجودية التي طورها بشكل حثيث

[٣٨] علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، ٢٠ جزءاً (بولاق، ١٨٨٨–١٨٨٩)، راجع الجزء ١: ٦٥–٧٧؛ وكذلك: Crabbs, Jr., *The Writing of History in Nineteenth-Century Egypt*, p. 114-119.

[٣٩] لايزال كتاب المقريزي نبراساً هادياً للمؤرخين المصريين المعاصرين، ليس فقط في معلوماته بل أيضاً في منهجه واتجاهه. من أجل مراجعة تأثيره على المؤرخين المعماريين المعاصرين راجع مقالي: Nasser Rabbat, «Writing the History of Islamic Architecture in Cairo», *Design Book Review* 31 (Winter 1994): p. 48-51.

و١٨٢٨ على شكل تسع أجزاء من النصوص واثني عشر جزءاً من الأشكال من القطع الكبير شكلت فيما بينها قاعدة معرفية متكاملة لدراسة مصر حسب ما توصلت إليه مناهج الابستمولوجيا الأوروبية في القرن التاسع عشر[٣٦]. وقد احتلت دراسة عمران وعمارة القاهرة ما يقارب الجزء من النصوص وجزءاً من الأشكال من القسم المخصص لمصر الحديثة. وكان المقريزي، ولا غرابة، مصدراً أساسياً للعلماء الفرنسيين الذين اعتمدوا على ترجمات ناقصة لخططه في نصوصهم، ولكنهم، بطبيعة الحال، لم يشاركوه نقده للسلطة ولا ألمه لتدهور القاهرة في عصره، وإن أدانت نصوصهم أيضاً سوء سلطة المماليك في العهد العثماني وحملتهم مسؤولية مباشرة عما آلت إليه أحوال مصر في القرن الثامن عشر. وقد اختلفت الأهداف طبعاً بين المقريزي والفرنسيين الذين كانوا يفتشون عن مبرر أخلاقي وعملي لاحتلالهم لمصر من خلال نظرتهم لأنفسهم كأصحاب مهمة حضارية هدفها انتشال مصر صاحبة الحضارة الفرعونية المتألقة من وهدة قروسطيتها المتطاولة وإدخالها العصر الحديث، طبعاً في ظل الحماية، أو الوصاية، الفرنسية[٣٧].

ولكن المقريزي حافظ على موقعه كمؤرخ القاهرة الرئيسي في الفترة اللاحقة لكتاب «وصف مصر»، بل واستمر باحتلال مركز الصدارة كمرجع أساسي بالنسبة للمؤرخين المصريين المحدثين الذين ابتدأوا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحت ضغط الحداثة الأوروبية المنشأ بالاهتمام بتاريخهم العمراني ثانية بعد ركود طويل. ولم يعامل هؤلاء المؤرخون المحدثون المقريزي على أنه مصدر معلوماتي فقط، بل اتخذه الكثير نبراساً فكرياً ومنهجياً، حتى أن البعض قلدوه في لغته كما هي حال علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية الجديدة» الذي أكمل فيه خطط المقريزي من حيث انتهت في القرن الخامس عشر، بل وبنى ما أضافه من معلومات واحصائيات على ديدن خطط المقريزي من دون إدخال أية

[٣٦] من أجل تحليل واف لأهداف وإنجازات: كتاب وصف مصر، الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر، الذي قام المرحوم زهير الشايب بنشر ترجمة عربية له وتابعت زوجته نشر بقية المجموعة من عدة مجلدات بعد وفاته (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٦)، راجع:
Charles Coulston Gillispie and Michael Dewachter, eds., *Monuments of Egypt the Napoleonic Edition: The Complete Archaeological Plates from la Description de l'Égypte* (Princeton: Princeton University Press, 1987), introduction, p. 1-29.

[٣٧] راجع المصادر الثلاث التالية من أجل تحليل للحملة النابوليونية من وجهة نظر فرنسية استعمارية، فتحليل نقدي من وجهة نظر مصرية معاصرة، فآخر نقدي من وجهة نظر فرنسية استعرابية معاصرة على التوالي:
Édouard Driault, «La Renaissance de l'Égypte», *Napoléon, revue des études napoléoniennes* 14, 1 (jan-fev. 1925): 5-22; Anwar Louca, «La renaissance égyptienne et les limites de l'œuvre de Bonaparte», Cahiers d'histoire égyptienne 7, 1 (fév. 1955): 1-20; Jacques Berque, *Egypt: Imperialism & Revolution*, trans. J. Stewart (London: Faber & Faber, 1972), esp. 101-102.

العلمي أو الفقهي تسمح بهذا النوع من التفكير والاستنتاج. ولكنه بنظرة المؤرخ المحلل والمنظر الثاقبة تمكن من استيعاب العلاقة بين ازدهار المدينة وعدالة السلطة، ووضع يده بجرأة يعز نظيرها حتى في يومنا هذا على الجرح الذي عاينه ينزف وحلل مسبباته وبيّن نتائجه. فالمقريزي بالحقيقة في كتابه هذا رائد معرفي سابق للعديد من الأنواع التاريخية الاجتماعية التحليلية التي ظهرت في أوروبا القرن التاسع عشر وأسست من خلالها علوم إجتماعية مهمة كالتاريخ الاقتصادي والتاريخ العمراني والسوسيولوجيا، والنوع الأكثر شمولية والذي كان يعرف بتاريخ الحضارات[٣٤](History of Civilization). ولعله لهذا السبب بشكل خاص تميز عن غيره من مؤرخي القاهرة من سابقيه ولاحقيه من العصر المملوكي المتأخر وحتى القرن التاسع عشر. فلا السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»، ولا أبي حامد القدسي (وليس ابن ظهيرة كما يظهر على غلاف الكتاب المطبوع) في «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»، يصل إلى مستوى المقريزي في استيعاب العلاقة بين العمران والمجتمع والسلطة السياسية، بل إنهما كلاهما يعودان إلى الأسلوب التقريري في معالجة الخطط على طريقة ابن عبد الظاهر وابن دقماق[٣٥].

ولم يأت من يتحدى الموقع الريادي للمقريزي كمؤرخ القاهرة الأهم والأعمق حتى بداية القرن التاسع عشر عندما هبت رياح التغيير المعرفي على مصر على شكل نزول مجموعة من العلماء الفرنسيين مع حملة نابوليون بونابرت الاستعمارية (١٧٩٨–١٨٠١) وانكبابهم على دراسة كل ما يمكن دراسته عن مصر، تاريخياً وجغرافياً وطبيعياً وانثربولوجياً وعمرانياً ومعمارياً، دراسة وافية ومفصلة ظهرت نتائجها على شكل المجموعة الموسوعية الهائلة الحجم «وصف مصر»، التي ظهرت تباعاً في باريس بين عامي ١٨٠٣

[٣٤] راجع التحليل المحكم لدراسات تاريخ الحضارة الذي يقدمه: Anthony Grafton, “Introduction: Notes from Underground on Cultural Transmission,” in eds. A. Grafton and Ann Blair, *The Transmission of Culture in Early Modern Europe* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1990), p. 1-7.

وكمقاربة مشابهة لمقاربتي هذه، ولكنها هنا عن تأثير ابن خلدون على فكر المؤرخ الموسوعي البريطاني أرنولد توينبي راجع: Robert Irwin, «Toynbee and Ibn Khaldun», *Middle Eastern Studies* 33, 3 (July 1997): 461-79.

[٣٥] كانت إلسة ريتماير أول من نبه إلى كون أبي حامد القدسي كاتب كتاب الخطط المنسوب خطأً لابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس (القاهرة، دار الكتب، ١٩٦٩)، راجع: Else Reitemeyer, *Beschreibung Ägyptens im Mittelalter aus den geographischen Werken der Araber* (Leipzig: Seele, 1903), p. 214.

وأنا مدين للأستاذ الراحل أولريخ هارمان (Ulrich Haarmann) (توفي حزيران ١٩٩٩) الذي نبهني لميل أبي حامد القدسي (ت. ١٤٨٥) لدراسة العمران مما طبع كل كتاباته بطابع خاص. راجع مثلاً كتابه: الفوائد النفيسة الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة الظاهرة، تحقيق أمال العمري (القاهرة، ١٩٨٨).

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā’id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

لهم الإدرارات الكثيرة» كما يرى المقريزي ماضي دولتهم الزاهي من موقعه. هذا النظام الذي سمح لهم بإقامة هرم سلطوي راسخ وعتيد اقتفى آثاره خلفاؤهم من بعدهم حتى عهد برقوق تضعضعت أسسه خلال حياة المقريزي الذي كان شاهد عيان لما يحلله. وهذا النظام الذي أفرز تراتبية محكمة لا يمكن فيه للفرد المملوك من الصعود إلى رتبة الإمارة فيه إلا بعد مروره بمراحل تدريبية عسكرية ودينية وأدبية متعددة وصارمة بحيث تكون «أخلاقه قد تهذبت وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ومنهم من يصير في رتبة عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر» قد زال وولى على حد رأي المقريزي. ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق «رخص للمماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباق في القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق... وبقي الجلب من المماليك إنما هم من الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأي الناصر [فرج بن برقوق] على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشؤونهم فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية من أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين مافيهم إلا من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب...فلا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر[٣٣].»

هذا هو بيت القصيد من نقد المقريزي اللاذع والمباشر: خروج السلطة المملوكية عن قواعد الحكم والعدل والشريعة أدى إلى خراب البلاد. ولا أظن أن أي وصف تقريري لسوء الحكم كان يمكنه أن يبلغ من التأثير ما يبلغه وصف المقريزي للآثار العمرانية التي سببها هذا التدهور وهذا التخبط الإداري والسياسي. وعلى هذا الأساس تبرز للسطح الخاصية السياسية النقدية لكتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار». فالموعظة والعبرة هنا ليست تجريدية أخلاقية محضة، بل هي تقريرية وفاعلة: عمران الخطط لا يتم إلا بصلاح السلطة. ولا يجدر بنا أن ننتظر من المقريزي أن يذهب أبعد مما ذهب إليه، كأن يدعو لتغيير الحكام مثلاً. فلا تربيته ولاخلفيته الإسلامية ولامحيطه

[٣٣] المقريزي، الخطط، ٢: ٢١٣–٢١٤.

وهكذا نجد المقريزي يستعمل تيمة (thème) الخراب والخوف من النسيان والرغبة بحفظ ذكرى الماضي السعيد كلازمة ناظمة للعديد من فصول كتابه. فالأوقاف انتهكت من قبل الأمراء الشرهين ودمر دورها الاقتصادي والعمراني بفعل الاستيلاء والاستبدال والبيع التعسفي وهي كلها بدع أدخلها الجراكسة على حد زعم المقريزي. والكثير من خطط القاهرة الجديدة التي انتعشت في العهد المملوكي المبكر، وخاصة خلال فترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (حكم ثلاث فترات بين ١٢٩٣–١٣٤١)، اضمحلت وتراجعت. وبعضها، كالمقس ومنشأة المهراني والدكة والخندق والرصد وبلبيس تحول إلى خرابات. ومستوى المعيشة تدهور واتضعت أحوال الناس فتحول الأغنياء إلى لبس الجوخ بدل الحرير، وإلى إزالة التكفيت الفني الرائع من أوانيهم النحاسية لبيع الذهب والفضة صرفين فقراً وإملاقاً. وزالت الأعياد الزاهية وذهبت بهجتها، فالفوانيس في ليالي المواسم لم تعد تشعل كما في الماضي، والزوارق التي تحمل اللاهين لم تعد تصعد وتهبط في النيل وفي البرك، وأسواق الرفاه اختفت. والحكام ازدادت شراهتهم لوضع يدهم على كل مايطالونه من أموال الرعية حلالاً أو حراماً، والقضاة والأعيان صارت تعين بالرشوة. هذه الصور التي تبدو لنا اليوم مكررة بعض الشيء أعطت الكتاب إيقاعاً تشاؤمياً واضحاً بحيث لايمكن للقارئ إلا وأن يحس به ويتألم لألم المقريزي وهو يشاهد عياناً استشراء الخراب في مدينته.

ولكن المقريزي لايكتفي بنقد السلطة من خلال التركيز على الخراب العمراني الحاصل بنتيجة فسادها وتجبرها وسوء إدارتها وابتعادها عن تعاليم الدين كما حددها حماته من العلماء والفقهاء، بل إنه يعمد للنقد نقداً صريحاً من خلال نماذج واضحة من بين السلاطين أو الأمراء الكبار الذين تسببوا بشكل مباشر في الخراب العمراني أو التدهور الاقتصادي أو في فساد الذمم وطغيان الأهواء. ثم يثبت خلاصة رأيه في تدهور السلطة المملوكية في فقرة هي من أدق التحليلات السياسية التاريخية التي أعرفها – والتي يجدر بي أن أثبتها كاملة – يستخدم فيها ببراعة فائقة نظرية معلمه ابن خلدون بعد أن كيّفها لتتلائم مع النظام المملوكي الخاص بعصبيته الاصطناعية وبطبقته الحاكمة المكونة من جيل واحد لا يمرر السلطة لأبنائه وإنما يستورد مجموعة جديدة من المماليك لتحفظ عصبيته وتحل محله على قمة هرم السلطة.

فالنظام المملوكي الصارم والدقيق الذي وضع قواعده الآباء المؤسسون مثل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون مكنهم من أن يصبحوا «سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أوتعدى، وكانت

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawā'iẓ wa al-i'tibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

على طبقات الحرفيين المستقرة في المدن السورية، واستنزف موارد مصر في تهيئة ودعم الجيش المملوكي. وفوق ذلك كله، هناك السبب الأول والأساسي للتدهور ــ برأي المقريزي ــ ألا وهو فساد المماليك نفسهم وابتعادهم عن الطريق الشرعي القويم وتكالبهم على جمع الثروات بكل الطرق بغض النظر عن الخراب الناتج عن أساليبهم الشرهة وقصيرة النظر في الإثراء على حساب دوام الاستقرار الزراعي والتجاري ورضا الرعية[٣١].

هذا الهاجس يجد طريقه للظهور في الكتاب أكثر من مرة. ويبدو لي أننا يمكننا اعتباره المفهوم الناظم للكتاب بحق. فهو الذي يدفع المقريزي في سباق محموم مع الزمن لأن يسجل بوله زائد كل تفصيلة عمرانية ومعمارية وتاريخية مهمة من وجهة نظره ومن ضمن مفاهيمه عن كل مبنى في القاهرة وبدرجة أقل في الفسطاط والمدن المصرية الأخرى خوف اندثارها وبالتالي نسيانها ونسيان العز والبحبوحة والاستقرار الذين أنتجوها بادئ ذي بدئ. ومن هنا تأتي جدة الكتاب وتباينه عن غيره من كتب الخطط التي عنيت بتسجيل الملامح العمرانية للقاهرة والفسطاط قبل وبعد المقريزي. فهذا القاهري المتفرد والحساس، غريب الأطوار والمسكون بهموم مدينته يكتب بعاطفة جياشة ومفعمة تنسل إلى كلماته وجمله وأفكاره فتضفي عليها بعداً أيديولوجياً وأنطولوجياً (كينونياً) واضحاً. فهو من خلال كتابه يتمسك بذكريات قاهرته التي ولت مع التدهور الحاصل في العهد الجركسي المبكر ويحاول إعادة سكبها وصفاً مفصلاً ومعبراً ومكتملاً لكل دقيقة من دقائق تاريخها. فهو بذلك يحاول أن يخلق في خططه «موئلاً للذاكرة» (lieu de mémoire) كما عرّفها المنظر الفرنسي پيير نورا (Pierre Nora) بعد أن فقدت المدينة – مدينة طفولته ومدينة الذكريات التي تشربها من أهله عن عظمتها أيام عنفوانها – قدرتها على أن تكون «محيطاً للذاكرة» (milieu de mémoire) أي على أن تكون بما هي عليه الأرضية الواقعية التي تنداح عليها صورة المدينة كما يتمثلها أناسها ويعيشونها ويتذكرونها، والأهم من ذلك كله، يحبونها ويستمدون هويتهم وانتمائهم منها.[٣٢]

[٣١] عن تدهور الأوضاع في الدولة المملوكية في القرن الخامس عشر راجع على سبيل المثال:
Eliyahu Ashtor, *Levant Trade in the Later Middle Ages* (Princeton: Princeton University Press, 1983); Jean-Claude Garcin, «Le système militaire mamluk et le blocage de la société musulmane médiévale», *AnIsl* 24 (1988): 93-110; Carl F. Petry, *Protectors or Praetorians?: The Last Mamluk Sultans and Egypt's Waning as a Great Power* (Albany: State University of New York Press, 1994).

[٣٢] من أجل مراجعة نظرية لمفهوم نورا عن موئل الذاكرة راجع:
Pierre Nora, «Between Memory and History: Les Lieux de Mémoire», *Representations* 26 (Spring 1989), 7-25.

أنه جعل العمارة بأوابدها ومبانيها العادية والعمران من أحكار وخطط وحارات وأسواق وطرق وترع وخلجان مؤشرات على صحة المجتمع والدولة ودلائل تاريخية يمكن للدارس الفطن أن يقرأ فيهما تاريخ مصر والقاهرة، وبالقياس غيرها من المدن. وهذا أيضاً سبق منهجي آخر في الثقافة العربية.

لايخفى على قارئ اليوم ملاحظة مدى وعمق تعلق المقريزي ببلده مصر ومدينته القاهرة، لا من خلال تخصيصه كتاب «الخطط» للبحث في تاريخها العمراني فحسب، وإنما أيضاً من خلال النبرة التي يعتمدها في الكلام عن مصر أو عن القاهرة أو عن أماكن ذكرياته المفضلة في المدينة وخاصة حارته، حارة برجوان، خلال الكتاب كله. ويظهر حبه لمصر أوضح ما يظهر في المقدمة التي تنفح بالمشاعر الجياشة تجاهها كونها «مسقط رأسه وملعب أترابه ومجمع ناسه ومغنى عشيرته وموطن خاصته وعامته وجؤجؤه الذي ربى جناحه في وكره».[٣٠] وهو بهذه المشاعر يظهر أكثر مايظهر وطنياً غيوراً قبل ظهور فكرة الوطنية نفسها وإن كان في سرده المسجع والسهل قد اختزل كل ما حاولت الوطنية الحديثة بعده بأربعة قرون إذكاءه في نفس المواطن من مفاهيم تهدف لتثبيت إنتمائه لبلده وقومه وتجذيره في تاريخهما ولغتهما وانتصاراتهما وكبواتهما.

وفي المقدمة أيضاً، يفصح المقريزي عن الهدف الأساسي الذي حداه إلى وضع هذا الكتاب الموسوعي: الخوف على ذكرى الخطط والمصانع والأوابد الهامة في مدينته من الزوال بسبب التدهور الحاصل في عمرانهما في الفترة العصيبة والقلقة التي عايشها المقريزي نفسه، والتي تعددت فيها أسباب الانحطاط والتدهور. فهناك الصراعات والفتن الداخلية في بداية العهد الجركسي من الدولة المملوكية التي شهدت انقلاباً في نظام الحكم قاده المغامر الأمير برقوق الذي قضى على السلالة القلاوونية التي حكمت أكثر من قرن (١٢٨٠-١٣٨٢) والذي احتاج وقتاً وجهداً وسياسةً لتثبيت حكمه والقبول به من مختلف قطاعات الجيش المملوكي. وهناك الآثار الرهيبة لطاعون «الموت الأسود» الخاطف والهائل الذي ضرب حوض البحر الأبيض المتوسط بين عامي ١٣٤٨-١٣٤٩ وحصد أكثر من ثلث مجموع السكان في تلك البلاد، وغيّر معادلات النمو والاقتصاد فيها والذي لم تستطع الدولة المملوكية - على خلاف الدول الأوروبية التي أصيبت به أيضاً - النهوض من كبوتها بعده. وهناك الغزو التيمورلنكي العاصف والكاسح في بداية القرن الخامس عشر الذي دمر الإقتصاد السوري، رديف اقتصاد مصر، وقضى

[٣٠] المقريزي، الخطط، ١: ٢-٣.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā’id «Al-mawā‘iẓ wa al-i‘tibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

عن تاريخ مصر والقاهرة، ولو أنه لم يكن دائماً دقيقاً في تطبيقه أو ناجحاً في فهمه للبعد المنطقي للنظرية الخلدونية. على العموم، يظهر أن المقريزي قد تمكن من تطويع النظرية لكي يقدم حلقة متواترة من الارتقاء والانحدار في نمو القاهرة العمراني ولكي يناقش من خلالها قدر المدينة في ظل السلالات المتعاقبة على حكمها في الحقب الإسلامية ابتداءاً بالطولونيين فالإخشيديين فالفاطميين فالأيوبيين فالمماليك البحرية ثم البرجية. وقد استعمل المقريزي وضع المدينة المعماري والاقتصادي والسكاني والعمراني كانعكاس لوضع السلطة في هذه الحقب المتوالية بشكل يذكر برأي ابن خلدون في تاريخ السلالات، لكي يصل في النهاية على ما يبدو لي لإدانة كاملة لتدهور الأوضاع تدهوراً لا أمل بقيام بعده في عهده هو وعلى يد المماليك البرجية، وإن كان يبدو لي متشائماً أكثر من اللازم.[٢٨]

فهذا العالم والمؤرخ الملتزم والحساس كان، كما يخبرنا تلميذه المؤرخ ابن تغري بردي، «مبعوداً في الدولة، لايدنيه السلطان مع حسن محاضرته وحلو منادمته». وبما أن السلاطين بعد الظاهر برقوق الذي كان حاميه وسميره، خاصة فرج ابن برقوق في آخر عهده ولكن أيضاً المؤيد شيخ وبرسباي، «أبعدوه من غير إحسان» على حد رأي ابن تغري بردي أيضاً فقد أخذ هو في ضبط مساوئهم وانتقاد سياساتهم نقداً عنيفاً، على أنه كان «ثقة في نفسه، ديناً، خيراً. وقد قيل لبعض الشعراء إلى متى تمدح وتهجو، فقال، مادام المحسن يحسن والمسيء يسيء»[٢٩]. وهذا هو في الحقيقة لسان حال المقريزي الذي تمكن، بحكم إبعاده عن الدولة، من الجهر في كتاباته بما لم يقله غيره علانية حفاظاً على المنصب والصلة، ومن تتبع أخطاء ومثالب وفساد الحكام في زمانه. وحاول من ضمن معطيات علمه وعقيدته تحليل مظاهر الفساد وتبيان نتائجها في تدهور الإقتصاد المملوكي وزيف العملة وتفسخ المجتمع وفي الخراب الذي حاق بعمران مصر والقاهرة بشكل خاص. وهو قد اتخذ منهجاً جديداً للولوج إلى مبتغاه النقدي، أي المدخل العمراني، وتطرق إلى نقد الدولة والمجتمع والاقتصاد والسياسة والثقافة وبعض العادات والتقاليد من خلال تتبع آثارها العمرانية والمعمارية. أي

[٢٨] راجع بشكل خاص تحليل المقريزي في: الخطط، ١: ٣١٣–٣٢٦ ، و٣٦٠–٣٦٥ للدولتين الطولونية والفاطمية من خلال عرضه لتطور القطائع، عاصمة الأوليين، والقاهرة، عاصمة اللاحقين، وراجع كذلك: الخطط، ١: ١٠١ ، ١١٠–١١١؛ ٢: ٥٢ ، ٢١٤ ، ٢٤١ ، ٢٩٦، من أجل أمثلة نافذة عن رأيه بفرج بن برقوق ودوره في خراب مصر.

[٢٩] راجع ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٥ جزءاً (القاهرة، ١٩٣٠–١٩٥٦)، ١٤: ٢٠٠–٢٠١؛ ١٥: ١٠٩–١١٠، عن رأي المقريزي ببرسباي خصوصاً.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar.   AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

سيما مقدمته التي لم يعمل مثالها، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم، ونتيجة العقول السليمة والفهوم، توقفك على كنه الأشياء وتعرفك حقيقة الحوادث والأنباء، كأنما تعبر عن حال الوجود وتنبئ عن أصل كل موجود، بلفظ أبهى من الدر النظيم وأعذب من الماء مر به النسيم»[٢٤]. ولاريب أن مفهوم ابن خلدون عن العمران قد أثر تأثيراً كبيراً في فكر المقريزي وفي تحليله لتاريخ القاهرة في خططه ولو أن المقريزي برأيي قد فاق في عمق وإحاطة تطبيقه للنظرية الخلدونية حتى معلمه ابن خلدون، الذي وإن كان أطول منه باعاً في التفكير والتحليل النظريين – بل وأطول باعاً من العديد من تابعيه حتى يومنا هذا – فهو قد حصر تحليله في الماضي المغاربي ولم يسمح لنفسه بتطبيق نظريته النقدية الجريئة على الحاضر المغاربي أو المملوكي اللذين عايشهما كليهما (مع بعض الاستثناءات المدهشة والذكية)[٢٥]. ولايمكننا الجزم بسبب واضح لهذا الاحجام عن النقد ماعدا دهاء وسياسة ابن خلدون ورغبته الواضحة في الإبقاء على كل قنوات الإتصال مع السلطة مفتوحة، حتى مع تيمورلنك الغازي الرهيب نفسه الذي سايره ابن خلدون لأشهر عديدة في ضواحي دمشق عام ١٤٠٠، بل وقبل أن يكتب له تذكرة بتاريخ وجغرافية المغرب مع إدراكه أن هدف تيمورلنك من ذلك هو التهيؤ لغزو المغرب[٢٦].

فالنظرية الخلدونية عن تتابع أطوار العمران والخراب بسبب حتمية صعود وهبوط الدول في التاريخ تبدو كالعقد الناظم لبعض كتب المقريزي، خاصة كتيب «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، وفي بحثه الصغير «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم»، وبصورة أوضح في كتاب «الخطط»[٢٧]. فهو في هذا الأخير يستخدم الإطار التحليلي للنظرية الخلدونية في ترتيب وتنسيق وتقديم الكم الهائل من المعلومات التي جمعها

[٢٤] راجع الترجمة الطويلة والمفرطة في المديح لابن خلدون التي أثبتها المقريزي في درره والتي نشرها محمود الجليلي عن مخطوطة كاملة للكتاب يمتلكها ولم تنشر حتى اليوم، «ترجمة ابن خلدون للمقريزي»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٣ (١٩٦٥): ٢١٥–٢٤٢، ٢٣٥.

[٢٥] راجع تحليل دافيد آيالون لرأي ابن خلدون في المماليك في: David Ayalon, «Mamlukiyyat: (A) A First Attempt to Evaluate the Mamluk Military System. (B) Ibn Khaldun's View of the Mamluk Phenomenon», Jerusalem Studies in Arabic and Islam 2 (1980): 321-339 (reprinted in *Outsiders in the Lands of Islam: Mamluks, Mongols and Eunuchs*. Variorum Reprints, London, 1988).

[٢٦] راجع محمد بن تاويت الطنجي، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١)؛ Walter J. Fischel, *Ibn Khaldun and Tamerlane: their Historic Meeting in Damascus, 1401 a.d. (803 a. h.) A Study Based on Arabic Manuscripts of Ibn Khaldun's «Autobiography»*, (Berkeley: University of California Press, 1952); 'Abd al-Rahman Ibn Khaldun, *Le Voyage d'Occident et d'Orient*, traduc. et éd. Abdesselam Cheddadi (Paris: Sindbad, 1980).

[٢٧] راجع محمد مصطفى زيادة، «تاريخ حياة المقريزي»، في: دراسات عن المقريزي، ١٣–٢٢، وكذلك مقدمة: Adel Allouche, *Study of al-Maqrizi's Ighathat al-Ummah bi-Kashf al-Ghummah*.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

الدوام بكتابه المركزي، «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، الذي أخذ من جهده أكثر من أي من مؤلفاته الأخرى ومات دون أن يكمله كما أراد واشتهى. فهو على ما يبدو من خلال التواريخ التي تظهر ضمن الكتاب ما فتئ يزيد وينقح فيه منذ بداية تأليفه حوالي العام ١٤١٥ وحتى سنتين قبل وفاته (١٤٤٠)، بل حتى يظهر أنه عدل في مخططه الأساسي ومنهجه مع مرور الزمن وتراكم المواد الأولية لديه من جهة، وتغير رأيه بالنظام المملوكي القائم من جهة أخرى، كما يظهر ذلك واضحاً من مقارنة المسودة التي نشرها أيمن فؤاد سيد مؤخراً والتي تمت كتابتها بين ١٤١٥ و١٤٢٠ على رأي ناشرها، مع المبيضة المنشورة والتي تعود افتراضاً إلى آخر تنقيح وإضافة أجراهما المقريزي على الكتاب قبيل وفاته وإن كان مازال غير كامل وفقاً لما وعد المقريزي به نفسه في ديباجة الكتاب. ولايقتصر النقص على غياب جزء أو اثنين من المخطط الأصلي، خاصة القسم الأخير الذي كان يفترض أن يحلل أسباب الخراب في مصر، بل يتعداه ليشمل بقاء عدد كبير من الأقسام ناقصاً أو مخلوط العبارة، بل وأحياناً مشوشاً ببعض الأخطاء اللغوية. ومع ذلك فهذه المبيضة التي وصلتنا ونشرت في بولاق عام ١٨٥٤ أقرب مايكون إلى الاكتمال بحيث أننا إذا ماضربنا صفحاً عن الأخطاء غير المقصودة لأمكننا أن نعتمدها معياراً لفكر المقريزي النقدي وأسلوبه في قراءة التاريخ العمراني لمدينته وبلده الذي تأثر تأثراً واضحاً بنظرية أستاذه العظيم ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون الشهيرة عن العمران.

فالمقريزي كان تلميذاً لابن خلدون ومصاحباً له خلال السنين الطويلة التي قضاها هذا المفكر الألمعي في السلطنة المملوكية وتقلب خلالها في مناصب القضاء والتدريس في أكابر مدارسها في القاهرة ودمشق منذ وفوده على السلطان الظاهر برقوق في القاهرة (ذي القعدة ٧٨٤/يناير–فبراير ١٣٨٣) وحتى وفاته في ٢٧ رمضان ١٨/٨٠٨ مارس ١٤٠٦. وهو، أي المقريزي، يكن لمعلمه أشد الاحترام وينعته بكل صفات التقدير والتبجيل، وينسب له عدداً كبيراً من الأحاديث التي يبثها في تضاعيف كتبه والتي تعود لتواريخ مختلفة تغطي أكثر من عشر سنوات مما يؤكد طول الصحبة بين الرجلين[٢٣]. ولايخفي المقريزي إعجابه بعمق تفكير معلمه خاصة في كتاب «العبر» وفي مقدمته التي يقول عنها «وألف كتاب الوصف البديع الصفة المسمى عنوان العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر [؟] وهو لعمري نادرة عجيبة ودرة بديعة غريبة،

[٢٣] المقريزي، درر العقود الفريدة، ١: ١٤٣ ، ١٥٢؛ ٢: ٦٣، ١٩٣؛ الخطط، ١: ٥٠ ، ٢: ٧٦.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawā'iẓ wa al-i'tibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

إلا فيما ندر. ولم يغادر القاهرة إلا مرتين على الغالب في أواخر حياته للحج والمجاورة في مكة إتماماً لفروض دينه وانعكاساً لمتطلبات زهده المتنامي. ولعل القشة التي قصمت ظهر البعير وجعلت المقريزي ينتقل من التفكير بالاعتزال إلى التنفيذ كانت مقتل صديقه وحاميه كاتب السر فتح الدين فتح الله بن مستعصم بن نفيس الإسرائيلي الداوودي التبريزي الحنفي على يد السلطان المؤيد شيخ بعد ستة أشهر (يناير–يونيو ١٤١٣) قضاها في الترسيم وتحت التعذيب مع أنه كان المسهل الرئيسي لوصول المؤيد شيخ إلى السلطنة عبر سلسلة من المراوغات المحكمة التي مكنته من تحييد أو إزالة كل منافسي السلطان من أمراء وكبراء[٢١].

وقد قضى المقريزي النصف الثاني من حياته (من ١٤١٢ إلى ١٤٤٢) في عزلة نسبية بعيداً عن مواقع السلطة ومسييريها من سلاطين وأمراء وكتاب ووزراء. وكتب وصنف مجموعة من كتب الأخبار عن السلالات التي حكمت مصر الإسلامية وعن أهم رجالاتها، مجموعها سبعة، ابتدأها بكتاب صغير عن دخول العرب إلى مصر وترتيب قبائلهم سماه: «البيان والإعراب عمن دخل مصر من الأعراب»، أتبعه بكتاب عن عاصمة مصر الإسلامية الأولى تحت عنوان، «عقد جواهر الأسفاط في تاريخ مدينة الفسطاط»، وهو للأسف مفقود اليوم، ثم كتابه المهم عن الفاطميين، «إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا»، المتعاطف مع هذه السلالة الحاكمة التي أدانتها العقلية السنية السائدة والذي يفصح عنوانه ومضمونه عن ميول المقريزي للفاطميين الذين كان يعتقد أنه من سلالتهم، وفي النهاية كتابه الكبير والمهم «السلوك لمعرفة دول الملوك»، الذي يعرض فيه حوادث العهدين الأيوبي والمملوكي بما فيها مشاهداته الشخصية حتى قبيل وفاته. ويبدو أن المقريزي قد اتبع الترتيب الزمني في تأليف هذه الكتب مع أنه شغل نفسه خلال نفس الفترة بتجميع كتيبات صغيرة عن مواضيع مختلفة، أغلبها تاريخي أو ترجمي (مجموعها ١٩ كتيباً، منها ١٢ منشورة وفقاً لمعلوماتي) وبكتاب التراجم الكبير، «المقفى الكبير»، الذي أراده على مايبدو جامعاً وحاوياً لتراجم كل من سكن مصر أو زارها أو مر بها من الشخصيات المهمة، ولكنه توفي قبل أن يتمكن من إتمامه.[٢٢] وخلال هذه الفترة الطويلة كلها كان المقريزي مشغولاً على

[٢١] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ ، ١:٢٤٢ ، ٢٤٨، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ يسجل بالتفصيل عذابات صاحبه فتح الله قبل مقتله في سجنه بأمر من السلطان المؤيد، ثم يعود في ٤ ، ٢: ١٠١٢، لكي يتغنى بمزايا وانجازات فتح الله بعد ثلاثين سنة على مقتله.

[٢٢] راجع جمال الدين الشيال، «مؤلفات المقريزي الصغيرة» في: دراسات عن المقريزي، ص ٢٣–٢٤؛ المقريزي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، مقدمة أيمن فؤاد سيد، ص ٤٧–٥٣. وقد نشر محمد اليعلاوي: كتاب المقفى الكبير مؤخراً اعتماداً على مخطوطة غير كاملة في ثمانية أجزاء (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١).

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar.   AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawā'iẓ wa al-i'tibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

يبدو حصيلة سنين من المعاناة من الصراعات المذهبية (أي بين أتباع المذاهب السنية الأربعة) والسياسية والمنفعية والتكالب على المناصب والفساد والرشاوى التي عايشها المقريزي عن قرب من خلال اتصاله بالسلطان برقوق وابنه فرج وبكبار رجال دولتيهما ومن بعدهما بالسلطان المؤيد شيخ الذي أدناه في بداية حكمه ثم أبعده من غير ما سبب واضح، ومن خلال المناصب التي شغلها خلال تلك الفترة وعلى رأسها وظيفة حسبة القاهرة التي احتلها ثلاث مرات (مارس–أغسطس ١٣٩٩؛ يناير–أبريل ١٤٠٠؛ ابريل–مايو ١٤٠٥) والتي أتاحت له الفرصة لكي يشاهد بعينيه السوس الذي كان ينخر في بنية السلطة المملوكية والفساد الذي استشرى في مختلف طبقات المجتمع من عامة وحكام. وقد شحذت تجربة الحسبة قريحة المقريزي وأمدته بالخبرة اللازمة والمعلومات الوفيرة التي استعملها في تأليف كتيبيه المهمين: الأول، «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، عن الضائقة الاقتصادية التي واجهت المجتمع المملوكي في بداية القرن الخامس عشر، والثاني، «شذور العقود بذكر النقود»، عن السياسة النقدية للدولة المملوكية، ليأتي من بعدهما كتابه الفريد عن الخطط وافياً وشاملاً في معلوماته العمرانية والاقتصادية والتاريخية[١٩].

وقد ظهر أول أعراض القرف على هذا العالم الشديد الإيمان ونقيه، وإن كان ضعيف الشخصية نوعاً ما، عندما كان بصحبة السلطان فرج بن برقوق وحاشيته في دمشق بين ١٤٠٧ و ١٤١٢. فقد عرض السلطان عليه قضاءها مراراً وهو يرفض ولو أنه باشر بعضاً من الوظائف الصغيرة من تدريس وإدارة وقف[٢٠]. وبعد مقتل فرج وانتقال السلطة إلى السلطان المؤيد شيخ عام ١٤١٢، عاد المقريزي إلى القاهرة من دمشق وأعرض عن الوظائف وانقطع في داره عاكفاً على الخلوة والعبادة والتأليف، وتوقف عن التردد لأحد

العسقلاني، معاصر المقريزي وصديقه الذي على ما يظهر أطلع المقريزي على ترجمته له، في: إنباء الغمر في أنباء العمر، ٩: ١٧٠–١٧٢. من أجل بحث الاتجاه نحو التصوف لدي العلماء القروسطيين راجع:
Nimrud Hurvitz, "Biographies and Mild Asceticism: A Study of Islamic Moral Imagination", *Studia Islamica* 85, I (Feb 1997): p. 41-65.

[١٩] من المرجح أن المقريزي أكمل كتيبه الاقتصادي: إغاثة الأمة، في دمشق قبل ١٤١٢، ثم أتبعه بكتيبه النقدي، شذور العقود، في شوال ٨١٨ / كانون الأول ١٤١٥، راجع:
Jere Bacharach, «Circassian Mamluk Historians and the Quantitative Economic Data», *Journal of the American Research Center in Egypt* 12 (1975): 75-87, 77, n. 23; Adel Allouche, tr. and ed., *Mamluk Economics: a Study and Translation of Al-Maqrizi's Ighathat al-Ummah bi-Kashf al-Ghummah* (Salt Lake City: University of Utah Press, 1994), p. 4-7.

[٢٠] المقريزي، درر العقود الفريدة، ٢: ١٠٧، ٢: ١٩٨ حيث يورد تواريخ دخوله دمشق وإقامته فيها؛ راجع أيضاً السخاوي، الضوء اللامع، ٢: ٢٢، والمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤، ١: ٨٣–٨٤، حيث يعدد الوظائف التي شغلها في دمشق.

خطط المقريزي بين التدوين والتذكر والنقد

ومع ذلك، وعلى الرغم من انتقادات السخاوي والعيني وتلميذه الجوهري الصيرفي الجارحة واللاذعة فقد استحوذ كتاب المقريزي على اهتمام معاصريه وتابعيه بدليل العدد الكبير من مخطوطات الكتاب المنتشرة في مكتبات العالم (أكثر من ١٧٠ مخطوطة وفقاً لأيمن فؤاد سيد منها ٣٥ مخطوطة في استنبول وحدها)، وبدليل العديد من الكتب اللاحقة التي اقتبست منه بل واعتمدت مخطط كتابه وأكملته أو بنت على منواله حتى اليوم الحاضر على الرغم من تغير المقاييس وتطور النظريات واختلاف الأهواء والمشارب. ولهذه الشعبية واستمرارية الأهمية أسباب عديدة تتجاوز سعة وتفصيلية مواد الكتاب لتشمل معالم أساسية في توجهه وهدفه ونبرته وشموليته الموضوعية والتحليلية وخلفية كاتبه الاجتماعية والشخصية والدينية التصوفية. فكتاب «المواعظ والاعتبار» في الحقيقة يخرج من دائرة النقل والتدوين التي طبعت غالبية أدبيات الفترة بطابع الجمود والتكرار لكي يقرب قارءه أكثر من فكر وعاطفة وهموم كاتبه ويجعله يعايشها ويتعاطف معها، أو على أقل تقدير يتفاعل معها بطريقة أو بأخرى حسب ثقافته وخلفيته وزمانه ومحيطه.

ولعل أكثر مايقرب المقريزي إلى القارىء المعاصر هو أن كتابه يصب بنهاية الأمر في خانة الدراسات النقدية الإصلاحية ذات النفس الحي والمتألم والفرداني التي قل ما نجد مثيلها في التراث القروسطي برمته. فالمقريزي الذي ابتدأ حياته المهنية على نفس المنحى المعتاد عند معظم العلماء القروسطيين من التتلمذ لكبار علماء عصره والاستفادة من اتصالات عائلته والسعي لنيل الحظوة عند الأمراء وأصحاب الشأن، و«الذي قضى شطراً طويلاً من فتوته وهو يجالد في كواليسهم للوصول إلى منصب يرضاه» نجده فجأة ومن دون سبب واضح يقرر الكف عن التزلم للأكابر وينعزل في بيته العائلي في حارة برجوان في قلب قاهرة المعز وهو في عز الشباب وفورة النشاط وينصرف للمطالعة والكتابة والعبادات التي قاربت التصوف[١٨]. ولاندري سبباً مباشراً لهذا القرار وإن كان

[١٨] كل مترجمي المقريزي متفقون على أنه اعتزل المناصب كافة قبل العام ١٤٢٠ ولكنهم لايقدمون اسباباً كافية لهذا الاعتزال. المقريزي نفسه يبث في تضاعيف كتاب التراجم الصغير: درر العقود الفريدة، لواعج زهده في الحياة العامة الفاسدة ورغبته بالابتعاد عن المناصب، راجع مثلاً ٢:٦٠ حيث يورد المقريزي قصة محاولته اقناع صديق له بالابتعاد عن التزلم للأكابر إذا كان فعلاً صادقاً في زهده. راجع كل من ترجمات السخاوي في الضوء اللامع،٢: ٢٤، وابن تغري بردي، تلميذ المقريزي، في كتابيه، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ١:٣٩٤؛ وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، جزئين، تحقيق محمد كمال عز الدين (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٠) ١: ٦٣–٦٨، وابن حجر

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

وقد بين بعض الباحثين المحدثين أن أكثر من ثلثي كتاب المقريزي يعالج أخباراً ومواداً تعود لما بعد ١٤٠٨ أي بعد وفاة الأوحدي نفسه مما ينفي عن المقريزي تهمة التبعية الموادية الكاملة[١٥]. ويأتينا بعد ذلك النفس النقدي الفردي الواضح في تضاعيف كتاب المواعظ والاعتبار والوحدة المنهجية والترتيبية التي وإن كانت غير مكتملة فهي واضحة في كل جزء من الكتاب، ممايؤكد بأن المقريزي لم يفعل أكثر من أنه أخذ مواد الأوحدي وصاغها بلغته وضمها لموضوعه كمواد أولية، كما فعل كل كتاب فترته وكما يفعل أي مؤلف اليوم[١٦]. ولعل الاعتراض الأهم على المقريزي، والذي لايمكن تبريره إلا بتذكر المنافسة الشديدة بين علماء ذلك العصر المحصورين في بيئة ضيقة، هو أنه لم ينسب للأوحدي أي مادة في كتابه ولم يقر له بفضل السبق في تجميع بعض المواد التي استعملها في نصه على الرغم من أنه قد أقر بفضل كل من عداه من السابقين له. وهو قد فعل الشيء نفسه مع معاصره الآخر ابن دقماق، الذي كان أيضاً من معارفه وأصدقائه، مما يؤكد صحة الفرضية بأن المنافسة بين هؤلاء المؤرخين المعاصرين ربما كانت السبب الأهم وراء إنكار المقريزي لفضل كتابيهما على مواده وكتابه[١٧].

[١٥] راجع مثلاً المقريزي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، مقدمة أيمن فؤاد سيد، ٧٢–٧٣.

[١٦] عن اسلوب النقل والاستشهاد في الكتابات العربية القروسطية راجع:
Franz Rosenthal, *The Technique and Approach of Muslim Scholarship* (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p. 41-48.

[١٧] المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، طبعة درويش ومصري، ترجمة ابن دقماق، ١: ص ١١٧–١٢١. ويقول المقريزي في ص ١١٨ أن ابن دقماق كان ينقل منه هو وينسب لنفسه، ولكن ابن قاضي شهبة الذي راجع مخطوطة المقريزي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أي بعد وفاة الكاتبين، يعلق سلباً على ادعاء المقريزي في حاشية المخطوطة. وقد اقترح أيمن فؤاد سيد في مقدمته لكتاب المقريزي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، ص ٦٨–٧٢، أن سبب عدم نقل المقريزي عن ابن دقماق راجع لكون كتاب «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» كان قليل الانتشار بدليل بقاء مخطوطة واحدة منه فقط كانت قد حفظت كوقف في مسجد صغير في القاهرة منذ كتابتها في بداية القرن الخامس عشر وحتى اكتشافها في نهاية القرن التاسع عشر، على عكس مخطوطات المقريزي المنتشرة. ومما يرجح صحة تأويل أيمن فؤاد سيد هو أن المقريزي نفسه في ترجمته لابن دقماق في: درر العقود الفريدة، ص ١١٩، يقرر أنه أخذ عن ابن دقماق روايتين شفهيتين فقط وأثبتهما في خططه، وهو لايذكر كتاب ابن دقماق مطلقاً.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

وهكذا عندما يصل المرء إلى كتاب المقريزي في الربع الأول من القرن الخامس عشر الميلادي يجد نفسه إزاء نقلة معرفية ونقدية ونوعية ملحوظة. والحقيقة أن أهمية هذا الكتاب الهائل الحجم – جزءان من القطع الكبير، كلاً منهما أكثر من خمسمائة صفحة – لاتقتصر على حفظه للمعلومات المعمارية والعمرانية والإخبارية والتاريخية عن عمران القاهرة، وغيرها من المدن والقرى والدساكر المصرية، وإن بدرجة أقل، والتي لولاه لكنا فقدناها بفقداننا لمصادره التي استقى منها، أو على ترتيبه لتلك المعلومات ووصلها وملء الشواغر فيها والزيادة عليها، بل إنها تصب في خانة روح الكتاب ودوافع كاتبه التي لاقت صدى إيجابياً متفهماً ومتعاطفاً ومؤيداً في نفوس العديد من معاصريه وتابعيه في مصر وخارجها. هذا على الرغم من الإشكالية التي طرحها اتهام المؤرخ الناقد واللاذع الهجاء عبد الرحمن السخاوي لاستاذ استاذه المقريزي بسرقة كتاب عن الخطط من تأليف جاره احمد بن الحسن الأوحدي (١٣٦٠–١٤٠٨) وانتحاله لنفسه. وهو، أي السخاوي، بهذا قد جانب الموضوعية وتجاهل ما أقره المقريزي نفسه في ترجمته لصديقه وجاره الأوحدي في كتابه «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة»، من أنه ضم مسودة كتاب الأوحدي في الخطط التي وقعت له بعد وفاة مؤلفها إلى كتابه[١٣]. ومع أن بعض معاصري المقريزي كانت لهم آراء سلبية فيه أيضاً إلا أن أي منهم لم يكرر اتهام السخاوي بالحدة نفسها مع أن معظمهم قد اطلع على كتاب السخاوي. حتى القاضي بدر الدين العيني نفسه، وهو عدو المقريزي اللدود ومنافسه الأول على الوظائف في الدولة، والذي لم يجد أي شيء إيجابي يثبته في ترجمته للمقريزي لايتهمه بالسرقة وإن كان يكيل له اتهامات أشد «كالحكي بالمغيبات والضرب بالرمل»، ولو أنها واضحة المغزى والهدف على ضوء الصراع المرير بينهما في البلاط المملوكي وفي استجلاب الحظوة عند كبار الأمراء[١٤].

[١٣] يورد السخاوي اتهامه أكثر من مرة، الأولى في كتابه: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٥ أجزاء (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٣٥–١٩٣٦) ١:٣٥٨ ، ٢: ٢٢–٢٣؛ وكذلك: كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٨٩٦)، ص ٢٢–٢٣ ، ١٠٣؛ وكذلك: إعلان التوبيخ لمن ذم التاريخ (دمشق: مكتبة القدسي، ١٩٣٠)، ١٣١. أما عن كتاب: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، فهو منشور في طبعتين من المخطوطة الوحيدة غير الكاملة (تحتوي على ٣٣٠ ترجمة من الأصل المقدر بـ ٥٥٦ ترجمة)، المحفوظة في مكتبة غوطا (مخطوطة ٢٧٠ عربية) نشرتا خلال ثلاث سنوات بينهما من دون أي تبرير. الأولى بجزئين بتحقيق محمد كمال الدين عز الدين، المقريزي وكتابه درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٢) والثانية بجزئين أيضاً بتحقيق درويش ومصري (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥). عن ترجمة المقريزي للأوحدي راجع طبعة درويش ومصري، ١: ٢٥١–٢٥٢.

[١٤] راجع ترجمة المقريزي في كتاب بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، المنشورة في مختارات عبد الرزاق الطنطاوي القرموط (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩)، ص ٢٨ ، ٥٧٤.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

أثبت منها في كتب لاحقة، خاصة كتاب المقريزي نفسه[١٠]. من أشهر هذه الكتب على رأي المقريزي أيضاً كتاب ابن زولاق (٩١٩–٩٩٧) «خطط مصر»، وكتاب القضاعي (توفي ١٠٦٢) «المختار في ذكر الخطط والآثار»، وكتاب محمد بن أسد الجواني (توفي ١١٩٢) «كتاب النقط بعجم ما استشكل من الخطط».

ماوصلنا كله أو بعضه في نهاية الأمر من كتب الخطط المكتوبة قبل كتاب المقريزي كتابان: الأول هو كتاب محي الدين بن عبد الظاهر، «الروضة البهية في خطط القاهرة المعزية»، الذي جمعه بين ١٢٦٧ و١٢٨٥، والذي اكتشف وحقق مؤخراً، وكتاب ابن دقماق، «الانتصار لواسطة عقد الأمصار»، الذي جمعه بين ١٣٩١ و١٤٠٦، والذي اكتشف منه الجزئين الرابع والخامس وحققا في نهاية القرن التاسع عشر[١١]. كتاب ابن عبد الظاهر، كاتب السر على عهود كل من السلاطين المماليك المؤسسين بيبرس وقلاوون والأشرف خليل، كتاب صغير لطيف، يبدو أنه ارتأى من تأليفه أن يجمع كل المواد المتعلقة بالقاهرة المعزية أو القاهرة الفاطمية التي كانت معاول الهدم والهجران وتقلب الأحوال قد بدأت بتغييرها منذ العهد الأيوبي، كما يقول ابن عبد الظاهر نفسه في مقدمة كتابه. وربما كان لتسارع التغيير في فترة خدمة ابن عبد الظاهر، عندما كان السلاطين والأمراء المماليك منهمكين في بناء المدارس والقباب الفخمة في قلب القاهرة الفاطمية مكان القصور والدور الخليفية، الدور الأهم في انصرافه إلى تأليفه. وعلى هذا يظهر كتاب ابن عبد الظاهر كمحاولة للتذكر وحفظ الصورة وإن كانت المحاولة لاتخلو من اهتمام بيروقراطي وتاريخي بتسجيل المواقع القديمة ربما بتكليف من السلطان بيبرس نفسه. أما الكتاب الثاني، «الانتصار» لابن دقماق، فلم يصلنا منه مع الأسف سوى حوالي ثلثه، ولكن ما وصلنا كاف لإعطائنا فكرة عن محتوى ومنهج الكتاب الذي لم يزد عن كونه تجميع سردي مختصر وسريع لخطط الفسطاط، ربما كانت تتمته عن خطط القاهرة وإن كان أيمن فؤاد سيد يرجح أن الكتاب ركز بشكل رئيسي على الفسطاط[١٢].

[١٠] يقدم لنا المقريزي نفسه جرداً بغالبية كتب الخطط السابقة لكتبه وإن كان يهمل بعضها لأسباب جديرة بالبحث في مقال آخر، راجع تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزئين (بولاق، ١٨٥٤)، ١: ص ٤–٥؛ راجع أيضاً، عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط، ص ٣٧–٤٩؛ وكذلك المقريزي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، مقدمة أيمن فؤاد سيد، ص ٦–٢٢.

[١١] محي الدين بن عبد الظاهر، الروضة البهية في خطط القاهرة المعزية، تحقيق أيمن فؤاد سيد (القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٦)؛ ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار تحقيق ك ڤوللرز (بولاق، ١٨٩٣).

[١٢] راجع المقريزي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، مقدمة أيمن فؤاد سيد، ص ٨٠–٨١ من أجل مناقشة كتاب ابن عبد الظاهر، وص ٧٠ من أجل مناقشة كتاب ابن دقماق.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

في التاريخ الإسلامي القروسطي، وإن كان ابن شداد على مايبدو مجدداً فكرياً ومعلوماتياً أكثر منه صاحب نظرية أو منهج جديدين، ولكنه مع ذلك يمثل حلقة وصل بين الكتب الشاملة الجامعة في الجغرافيا أو المسالك والممالك، والكتب المتخصصة بمدينة واحدة أو بقطر واحد، ككتب الخطط.

نأتي الآن إلى كتب «الخطط» نفسها، التي على ما بيّنا استعارت الكثير من التقاليد السابقة عليها من كتب المدن والفضائل والمسالك والممالك، ولكنها طوعت هذه الاستعارات لتلائم أهدافها واتجاهاتها وحدودها المعرفية والأيديولوجية والمنهجية. لم تهتم كتب الخطط بالأسئلة البلدانية والجغرافية بشكل مباشر أو بتراجم أعيان المدنيين أو فضائل المدن نفسها من دينية وإشراقية وأخروية، بل ركزت بشكل أساسي وحاسم على الأبنية والخطط أو التاريخ المدني والعمراني. وقد حددت كتب الخطط من اهتمامها فنزلت بمنظورها من مستوى كوني أو إسلامي على أقل تقدير إلى منظور قطري. أما تاريخياً، فقد ظهرت كتب الخطط بشكل أساسي في مصر إبان العهد الإسلامي، بل لعل مصطلح الخطط لاينطبق على أي تقليد أدبي في أي بلد إسلامي آخر. ولم يردنا أن أي قطر إسلامي أخر قد شهد أي نمو ملحوظ لهذا النوع الأدبي وإن كانت هناك بعض الكتب التي يمكن وصفها بكتب الخطط من أقطار أخرى، ولكنها لا ترقى في مجموعها إلى مستوى التقليد الفكري المتصل من القرن الثالث هجري/التاسع الميلادي وحتى القرن السابع عشر أو بعده الذي نلاحظه في مصر. ولهذا أسباب مختلفة يمكن إجمالها بقوة الحس الوطني والقومي المعبر والمفوه في مشاعر أبناء مصر وبناتها وكتاباتهم قبل ظهور الشعور الوطني والقومي كما نعرفهما اليوم، على أساس نظرية المفكر المصري الراحل جمال حمدان عن شخصية مصر المتميزة[٨]. وقد وجدت هذه المشاعر متنفسها في كتب الخطط التي نمت بشكل خاص بعد تأسيس الخلافة الفاطمية في مصر واستقلالها عن بغداد بل وتنافسها معها على صعيد الشرعية الإسلامية وإحيائها للشعور المصري بالتفرد والخصوصية والأهمية[٩]. هذا على الأقل هو الرأي السائد عن كتب الخطط التي ظهرت في تلك الفترة، والتي فقدت كلها بحيث أننا لانعرف عنها سوى ما

[٨] راجع جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة في جغرافية المكان، ٤ أجزاء (القاهرة:عالم الكتب، ١٩٨٠–١٩٨٤).

[٩] من أجل نقاش أولي ومختصر لأسباب نشوء الخطط راجع كلاً من: Claude Cahen, «Khitat», *Encyclopedia of Islam*, 2nd edition, 5: 22; Jack A. Crabbs, Jr., *The Writing of History in Nineteenth-Century Egypt* (Detroit: Wayne State University Press, 1984), p. 115-119.

وينتمي نوع «الخطط» بشكل أكثر مباشرة لكتابات «المسالك والممالك»، النوع الأدبي البلداني الأكثر شهرة في التاريخ الفكري الإسلامي والذي يعود بجذوره أيضاً إلى فروع عدة ككتب الفتوح وكتب الزيارات وكتب الخراج وكتب صورة الأرض[٥]. فالمسالك والممالك في نهاية المطاف كتب جغرافية ذات بعد كوني شمولية المنظور، وإن كانت شموليتها نادراً ماتخطت حدود العالم الإسلامي. وقد طرأ تطور مهم على نوع «المسالك والممالك» في نهاية القرن الثالث عشر إثر نهوض الأمة من كبوتها وتمكنها من إيقاع الهزيمة بالصليبيين والمغول على يد المماليك في مصر والشام، إذ دخلت النواحي السياسية أو مانسميه اليوم بالجيوبوليتيكا في صلب اهتمامات هذا النوع الأدبي مما أدى إلى صعوده إلى قمة الأنواع الأدبية الرائجة، كانعكاس لتصاعد الوعي بالذات وكسجل لإنجازات النخب الحاكمة في توسيع رقعة دولة الإسلام من خلال الجهاد. ويظهر ذلك جلياً في العمل الموسوعي الرائع، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، الذي ألفه شهاب الدين ابن فضل الله العمري (١٣٠١–١٣٤١) كاتب سر السلطان المملوكي الناصر محمد بين ١٣٢٩ و ١٣٣٢[٦]. وقد سبق «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» كتاب آخر شبيه في مضماره وتوجهه وإن كان أقل شمولية من كتاب العمري، ذلك هو كتاب عز الدين بن شداد، «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، الذي ألفه على مايبدو للسلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠–١٢٧٦) بهدف إطلاعه على جغرافية بلاد الشام وعمرانها وتقاليدها الإدارية في الفترة التي كان النفوذ المملوكي يمتد فيها في بلاد الشام ويتوطد[٧]. وقد قسم ابن شداد كتابه إلى ثلاثة أقسام: واحد عن مملكة حلب وتوابعها وواحد عن مملكة دمشق وتوابعها وواحد عن الجزيرة. وتضمن الكتاب وصفاً تفصيلياً للمدن في هذه الممالك يحوي بعضاً من أكثر الكتابات المعمارية أهمية

[٥] من أجل الدراسات عن نوع المسالك والممالك راجع كلاً من: André Miquel, *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e siècle*. 4 vols. (Paris: Mouton, 1967-1980), I: 267-330; Ulrich Haarman, «Auflösung und Bewahrung der klassischen Formen arabischer Geschichtsschreibung in der Zeit der Mamluken», *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* 121 (1971): p. 46-60.

[٦] راجع المقدمة النقدية بقلم دوروتيا كرافولسكي لكتاب شهاب الدين ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، من تحقيقها (بيروت، ١٩٨٦).

[٧] حقق الكتاب ونشر على ثلاثة مراحل: عز الدين بن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، مملكة حلب، مجلد ١، قسم ١، تحقيق دومينيك سورديل (دمشق، ١٩٥٣)؛ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سامي الدهان (دمشق، ١٩٥٦)؛ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ وطوبوغرافية الجزيرة السورية، جزئين، تحقيق يحيى عبارة (دمشق، ١٩٧٨). راجع أيضا محمد سعيد رضا، «ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة، قسم الجزيرة»، مجلة المؤرخ العربي، ١٤ (١٩٨٠): ص ١٢٤–٢٠٤.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

الخطط كتقليد أدبي قروسطي

في الحقيقة، يمكن اعتبار المقريزي في كتابه هذا سليلاً متفوقاً ومتألقاً لتقليد أدبي عربي وإسلامي متواصل وإن كانت فروعه مختلفة وأحياناً متغايرة في خلفياتها ومنحاها الفكري والمنهجي. ويمثل كتاب المقريزي ذروة فكرية في فرعه الخاص الذي اكتسب اسم «الخطط» (من «خطة» أي الموقع السكني الخاص بجماعة محددة ضمن حيز المدينة الإسلامية)، ذلك النوع المتخصص من الكتابة المدينية والعمرانية والبلدانية الذي يعود بجذوره العلمية والفكرية إلى تيارات عدة في الأدب العربي، ظهرت كلها مع بدايات الإسلام وتطورت لأسباب مختلفة دينية وإدارية وتنظيمية وأحياناً محض علمية أو استكشافية، وأحياناً للمتعة. سلسلة الأنواع الأدبية هذه تبدأ مع نوعين استقيا أصولهما من ضرورات المجتمع الإسلامي المتشكل عندما انداح المسلمون الأوائل من ديارهم لكي يختلطوا بحضارات البلاد المفتوحة يعطوها ويأخذوا منها في عملية شد وجذب مستمرتين، أديتا إلى زيادة وعي المسلمين بخصوصيتهم التاريخية وتمثلهم لأساليب الإنتاج الثقافي التي طورتها الشعوب المفتوحة قبل وبعد الفتح الإسلامي في آن واحد. هذان النوعان الأدبيان هما «كتب الفضائل»، التي ركزت على المميزات الدينية والقدسية للمدن الإسلامية وبشكل خاص المدن المقدسة، مكة والمدينة والقدس، والتي ازدادت أهميتها إثر الحروب الصليبية وتنامي الوعي بأهمية المقدسات الإسلامية خاصة في القدس، وكتب التراجم المتخصصة بالمدن التي حفظ مؤلفوها من خلالها تراجم علماء ومحدثي كل مدينة كبرى، والتي بلغت ذروتها مع كتابي «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٠٠٢–١٠٧١) و«تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر (١١٠٥–١١٧٦). هذان العملان الموسوعيان شكلا نموذجين فريدين لنوعهما الأدبي. وقد اتبعا كلاهما نفس المنهج والخطة، إذ ابتدأ كلاً منهما بوصف مختصر للمدينة وتاريخها في الإسلام، لم يتجاوز في طوله ربع مجلد من أصل ١٤ مجلداً لتاريخ بغداد و١٩ مجلداً لتاريخ دمشق، تلتهما سلسلة تراجم العلماء والمحدثين والفقهاء الذين عاشوا في كلا المدينتين أو درسوا فيهما أو أقاموا بهما وأخذوا العلم فيهما[٤].

[٤] أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ جزءاً (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٣١)؛ علي ابن الحسن بن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، طبعة مصورة من نسخة المكتبة الظاهرية باعتناء محمد بن رزق ابن الترهوني، ١٩ جزءاً (عمان: دار البشير، ١٩٨٠). من أجل مناقشة الكتابين ومن أجل ترجمة جزئية لأهم ماجاء فيهما على صعيد التاريخ العمراني راجع: Jacob Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages: Text and Studies* (Detroit: Wayne State University Press, 1970); Nikita Elisseeff, *La description de Damas d'Ibn Asakir* (historien mort à Damas en 571/1176), (Damas: Ifead, 1959).

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

بدرجة أقل، في «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، الذي يمكن اعتباره بحق كتاب مؤسس في التاريخ العمراني على مستوى العالم وواحد من أعمق الدراسات التاريخية العمرانية في التراث العربي المكتوب حتى اليوم وأكثرها موسوعية وموضوعية[٣].

فهذا الكتاب بدءاً يحوي بين دفتيه صورة معمارية وعمرانية وبشرية شبه كاملة لما كانت عليه مدينة القاهرة في بداية القرن الخامس عشر، وللأدوار التي لعبها الساسة والأعيان في الحياة المدنية والعمرانية والاقتصادية والسياسية والمراسيمية والاحتفالية في المدينة المملوكية. وهو كذلك يقدم لنا جرداً سردياً متكاملاً لتاريخ مصر قبل الإسلام كما تصوره المسلمون من خلال مصادرهم الدينية وشبه التاريخية، وتأريخاً مدققاً لتطور الفسطاط وبعدها القاهرة منذ نشأتها عقب الفتح الإسلامي ومروراً بعظمتها الخلافية إبان العهد الفاطمي وتفوقها العسكري الجهادي في العهدين الأيوبي والمملوكي المبكر إلى ظهور بوادر الانحطاط والتدهور فيها مع تحول السلطة إلى العنصر الجركسي في العصر المملوكي مع نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر، أي عندما كان المقريزي يجمع مواد كتابه ويصنفها. ويضم الكتاب أيضاً مسحاً شبه شامل لكافة المباني العامة أو المهمة في القاهرة والفسطاط من قصور ودور وجواسق ومساجد وجوامع ووكالات وخانات وخانقاهات ومدارس وزوايا ودور حديث وبيمارستانات وأسوار وأبواب وخوخ، وحتى كنائس المسيحيين وكنس اليهود، بالإضافة لجرد الحارات والأزقة والأقنية والخلجان والبرك والطرق، وتبيان تطورها منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية القرن الرابع عشر. فالمتصفح لكتاب «المواعظ والاعتبار» سرعان ما يلاحظ أن المقريزي في الحقيقة يقدم لنا صورة نصية أقرب ماتكون للخرائط المفصلة التي تستخدم اليوم في المسح والطوبوغرافيا، بالإضافة لمباحث متقدمة في التاريخ الطبيعي وعلم الآثار والتخطيط العمراني وتاريخ العمارة والتاريخ السياسي والثقافي لمصر كوحدة جغرافية وإدارية وكانتماء.

[٣] مع أهمية المقريزي كمؤرخ قروسطي فذ فالدراسات عنه قليلة نسبياً وبعضها غير وافية عموماً، واللائحة التالية تقدم بعضاً من أفضل الدراسات المتوافرة عن الرجل وكتابه: محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (القاهرة، ١٩٦٩)؛ محمد مصطفى زيادة وآخرين، دراسات عن المقريزي،(القاهرة: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧١)؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقريزي وكتاباته،» عالم الفكر، العدد ١٤، رقم ٢ (١٩٨٣): ص ٤٥٣–٤٩٨؛ محمد كمال الدين عز الدين، المقريزي مؤرخاً، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٠)؛ المقريزي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بتحقيق أيمن فؤاد سيد (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٩٥)؛ وكذلك: Sylvie Denoix, *Décrire le Caire Fustat-Misr d'après Ibn Duqmaq et Maqrizi : l'histoire d'une partie de la ville du Caire d'après deux historiens égyptiens des XIV^e^-XV^e^ siècles* (Le Caire : Institut français d'archéologie orientale, 1992) ; Ayman Fu'ad Sayyid, « Remarques sur la composition des Ḫitat de Maqrizi d'après un manuscrit autographe », *in Hommages à la mémoire de Serge Sauneron, 1927-1976, II : Égypte post-pharaonique* (Le Caire, 1979), p. 231-258 ; Fuat Sezgin, Mazin Amawi, Carl Ehrig-Eggert and E. Neubauer, *Studies on Taqiyaddin al-Maqrizi (d. 1442) : collected and reprinted* (Frankfurt am Main : Institute for the History of Arabic-Islamic Science at the Johann Wolfgang Goethe University, 1992).

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā'id «Al-mawā'iẓ wa al-i'tibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

وبداية القرن السادس عشر حتى مابعد الفتح العثماني وفيها انحصرت جل اهتمامات المؤرخين بالمحلي والآني[٢]. فعلى عكس أعلام مؤرخي القرن الرابع عشر من أمثال النويري والعمري في مصر والذهبي وابن كثير في الشام الذين غطت اهتماماتهم العالم الإسلامي كله، وأحياناً تجاوزته، فقد انشغل معظم كتاب القرن الخامس عشر بتدوين الحملات العسكرية والقمعية والحوادث اليومية للسلاطين وأصحاب الشأن من أمراء ووزراء بتفاصيلها الدقيقة في القاهرة أو دمشق، وبدرجة أقل في المدن الأخرى كحلب والقدس وطرابلس الشام، وبإيراد تراجم الأشخاص المهمين في كل فروع العلم والسلطة، وأحياناً توسيع دائرة اهتمامهم لتشمل طبقات أخرى من الناس من معاصريهم. وقد أدى هذا الاتجاه التخصصي مكانياً وزمانياً لتقوقع المدرسة التاريخية المملوكية المتأخرة وانغلاقها على نفسها. واشتد التنافس بين أعلامها الذين أصبح لكل منهم أتباع ومريدون ومؤيدون. وقد تسبب هذا التحزب والتنافس في الكتابة التاريخية ضيقة المدى أصلاً بالكثير من التكرار والإعادة في التدوين والترجمة والتحليل، وبالكثير من التقاطع الشخصي بين المؤرخين أنفسهم، الذين انشغل بعضهم بالتفتيش عن مثالب معاصريه كي يبرز على حسابهم ونسي الجدة والموضوعية التاريخية.

ولكن هذا الانغلاق وهذا التقوقع والتنافس المر لم يمنعا من ظهور بعض المؤرخين الأفذاذ الذين تمكنوا من تجاوز الظروف الحضارية والفكرية والسياسية التي وجدوا أنفسهم فيها لكي يسبقوا عصرهم في تفكيرهم وتحليلهم ورؤيتهم التاريخية، ولكي ينتجوا تاريخاً متفرداً، واعياً ومبتكراً. ولعل واحداً من أهم هؤلاء المؤرخين العرب القروسطيين وأكثرهم أصالة وتجديدية هو تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (١٣٦٤–١٤٤٢) ذلك الصوت المتفرد والمتميز في التاريخ القروسطي لمصر وبلاد الشام، بل وفي التاريخ الإسلامي برمته، الذي طاولت مؤلفاته التاريخية مختلف المواضيع من سير وتراجم وخطط ورسائل مقتضبة في مباحث شتى، والذي أثبت فعلاً أنه يمتلك حساً تاريخياً حقيقياً، مغايراً كل المغايرة للاجترار التدويني الذي طبع معظم انتاج معاصريه. ويعود الفضل في ذلك بالدرجة الأولى للنفس النقدي المدقق الذي يظهر واضحاً في الكثير من مؤلفاته (وإن كان غائباً في بعضها الأكثر تقليدية)، حتى أنه يشكل العصب المنظم لأشهرها وأعظمها ألا وهو تاريخه لمدينته القاهرة، ولبلده مصر

[٢] عن أسباب تراجع البعد الشمولي في المدرسة التاريخية المملوكية راجع، دوروتيا كرافولسكي، «الدولة المملوكية: البنية والمشروعية من خلال مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري»، في كتابها: العرب وإيران: دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجي (بيروت، ١٩٩٣)، ص ٨٩–١٢٣. وعن مقارنة بين ستة مؤرخين متأخرين من العصر المملوكي البرجي راجع:
Donald Little, *Introduction to Mamluk Historiography*, p. 73-99.

AnIsl 35 (2001), p. 77-100 ar. AL-RABBĀṬ (Nāṣir)
Al-madīna wa al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā’id «Al-mawāʿiẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

ناصر الرباط

المدينة والتاريخ والسلطة: المقريزي وكتابه الرائد «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»

يعتبر العصر المملوكي من أغزر العصور الإسلامية في الكتابة التاريخية وأكثرها تنوعاً، فعلى مدى القرنين والنصف من الزمن الذي حكمت فيهما طبقة المماليك مصر والشام (١٢٥٠–١٥١٧) ظهرت مئات المؤلفات في التاريخ والسير والتراجم وكتب المسالك والخطط والموسوعات الكتابية بما تجاوز العصور السابقة واللاحقة حتى العصر الراهن. وإلى هذا فقد نبغ في العصر المملوكي نفسه العديد من الأسماء التي مازالت أعلاماً تاريخية حتى اليوم. ففي بلاد الشام هناك أسماء مثل ابن الأثير والجزري والكتبي والصفدي والذهبي وأبي شامة وابن العديم وابن قاضي شهبة وفي مصر النويري وابن دقماق وابن الفرات والقلقشندي وابن حجر العسقلاني والعيني والمقريزي وابن تغري بردي والسخاوي والسيوطي وغيرهم الكثير ممن اشتغلوا بالتأليف التاريخي، حتى ليخال المرء أن الاهتمام بالتأريخ قد فاق كل اهتمام علمي في ذلك العصر[١]. ويمكننا بصورة عامة تقسيم الكتابة التاريخية في العصر المملوكي إلى فترتين من ناحية الشمولية التاريخية: الفترة الأولى وهي التي تغطي عموماً القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وقد تميزت بكتّاب حاولوا تغطية العالم الإسلامي بكامله في مبحثهم التاريخي والزمان الإسلامي كله منذ البعثة المحمدية وحتى زمانهم، والفترة الثانية التي تغطي القرن الخامس عشر بتمامه

ناصر الرباط: أستاذ الآغاخان لتاريخ العمارة الإسلامية. معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

[١] راجع عن المدرسة التاريخية المملوكية كل من: شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ورجاله في الإسلام، ٤ أجزاء (بيروت، ١٩٧٨–١٩٩٣)، ج ٢، ص ١٣٩–٣٠٤، ج ٣ بكامله، ج ٤، ص ٧–٢٢٧. وكذلك: Franz Rosenthal, *A History of Muslim Historiography* (Leiden: E. J. Brill, 2nd ed., 1968), *passim*; Ulrich Haarmann, *Quellenstudien zur frühen Mamlukenzeit* (Freiburg, 1970); Donald Little, *An Introduction to Mamluk Historiography : An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of al-Malik an-Nasir Muhammad ibn Qala'un* (Wiesbaden: F. Steiner, 1970); Tarif Khalidi, *Arabic Historical Thought in the Classical Period* (New York: Cambridge University Press, 1994), 182-231; Li Guo, «Mamluk Hisotorigraphic Studies: The State of the Art», *Mamluk Studies Review* 1 (1997): p. 15-43.